المحاضرة الخامسة:

الدّراسات الصّوتيّة القديمة:

تمهيد:

قدّم العلماء العرب الكثير من المباحث الصّوتيّة الّتي تضارع المباحث الحديثة فيها مع اختلاف العصور وتباين الوسائل.

– فقد أدرك **النّحاة** العرب قصور فهمهم محو العربيّة وصرفها اكتناه مخارجها وجهازها المصوّت وصفاتها العامة والخاصة وقوانينها، فأبوا بزادٍ وفير، ماثل في عشرات المصطلحات الصّوتيّة الّتي ترمي إلى جليل ما قدّموا، وغزير ما خلّفوا. كما كانت بحوث **"النّحاة"** الصّوتيّة أوسع مدى وأعمق نظرة وأدق منهجا، لقد قدّم "**سيبويه**" إمام النّحاة وصفا علميّا شاملا لأصوات العربيّة وإن جاء ذلك في ثنايا دراسته لموضوع "الإدغام" الّذي عالجه على أنّه من مباحث الصّرف أو التّصريف، وقد انتهج هذا النّهج، النّحاة الّذين اتّبعوه، كالمبرّد في (المقتضب) والزّمخشري في (المفصّل) وابن يعيش في (شرح المفصّل).

– أمّا أهل **العروض** فقد أغنوا البحث الصّوتي بدراسة أوزان الشّعر العربيّ وموسيقاه وبيان مواضع **النبر** فيه ومقاطعه.

– ولعلماء **الكلام والأصوليين والمعتزلة** عناية فائقة بالكلام المنطوق وبيان مكوّناته، وما النّطق إلّا أصوات مسموعة يظهرها اللّسان وتشارك بها أعضاء النّطق الأخرى، فكانت عنايتهم بـ(الحروف) باعتبارها (حروف لفظيّة دالة على حروف فكريّة) منبعها العقل موضع إثراء البحث الصّوتي.

– ولأصحاب **البلاغة** ملاحظات نافعة في **تنافر** الأصوات وائتلافها وعناية بالتّنغيم لشديد اهتمامهم بأساليب الخطاب وحسن البيان.

– ولأهل **القراءات والتّجويد** حظ وافر في دراسة الأصوات العربيّة وأصنافها وإحكامها من حيث الإدغام والإظهار والإخفاء والوقف والابتداء والمد اللّفظي والمد المنفصل والسّاكن والعارض، وأحكام الهمز والتسهيل والروم والاشمام وترقيق الأصوات وتغليظها. كما تتناثر ملاحظات **"القرّاء"** الصّوتيّة في

مقدّمات مؤلّفاتهم أو في ثنايا عرضهم للقراءات والاحتجاج بها، بيد أنّ بعضهم أفردها بكتاب كما فعل "**مكّي**" في "**الرّعاية**" و"**ابن الطّحان**" في "**مخارج الحروف وصفاتها**".

– **جهود علماء صناعة المعاجم**: فأقدم الملاحظات الصوتية العلميّة الّتي وصلتنا ترجع إلى القرن "**الثّاني الهجري**" في مقدّمة معجم العين "**للخليل بن أحمد الفراهيدي**"، لقد ابتدع **الخليل** نظاما فريدا لمعجمه اقتضاه أن يعتبر حروف العربيّة ويختبر جرسها، ومن ثمّ وضع لها ترتيبا جديدا وفقا لمخارجها متدرّجا من أقصاها إلى أدناها، ومن ثمّ أفرد في تلك المقدّمة وصفا مفصّلًا لتلك المخارج، وقد نهج نهجه في الوصف والترّتيب جماعة من اللّغويين مثل "**الأزهريّ**" في (التّهذيب)، و"**الصّاحب بن عباد**" في (المحيط).

– وثمة ملاحظات صوتية يعرض لها "**الأدباء والنّقاد**" في بحوثهم عن الفصاحة وإعجاز القرآن ، كم فعل الجاحظ والباقلاني وابن خفاجة وغيرهم.

– بيد أنّ كتبا استقلت بالبحث الصّوتيّ ووصلنا منها كتابان هما "**أسباب حدوث الحروف وصفاتها**" **لـ" ابن سينا"**، وكتاب "**سر صناعة الاعراب**" لابن جنّي.

أوّلا: مصادر الدّراسات الصّوتيّة عند العرب:

– تمهيد:

إنّ اللّغة نظام بالغ الدّقة والتّعقيد يتألّف من عدد من الأنظمة الفرعيّة الّتي تنظّم وحدات اللّغة المختلفة، ويطلق على هذه الأنظمة: النّظام الصّوتي، النّظام الصّرفي، والنّظام النّحوي، وكلّ نظام من هذه الأنظمة له وحداته الخاصة، وله قواعد تحكم تأليف الوحدات، وكلّ نظام من هذه الأنظمة يعمل من خلال غيره من الأنظمة، ولكنّنا مع ذلك نستطيع – من أجل التّحليل فحسب– أن نميّز وحدات كلّ نظام وتحدّد قواعد التّركيب الخاصة به.

ويعدّ **الصّوت الإنسانيّ** ظاهرة ماديّة تتمثّل في نشاط عضويّ تقوم به أعضاء النّطق، ونشاط طبيعيّ يحدث في الوسط الّذي يفصل المتكلّم عن السّامع، وسيرى فيه الصّوت حتّى يصل من الأوّل إلى الثّاني، ونشاط ذهنيّ يتمثّل في الانطباع الإدراكيّ أي السماع.

وقد لجأ **"علماء الأصوات"** عند وصف عمليّة الكلام إلى هذه العناصر الثّلاث، النّطق والسّماع والنّشاط الطبيعيّ لكي يفرّقوا بين صوت وآخر من أصوات اللّغة الموصوفة.

وقد استوفى علماء العربيّة البحث في هذه العناصر على النّحو المعروف عند علماء الأصوات المحدثين، وقدّموا الكثير من المباحث الصّوتيّة الّتي تضارع المباحث الحديثة فيها مع اختلاف العصور وتباين الوسائل.

وقد كانت تلك الدّراسات –كما يقول **"كانتينو"–** دراسات وصفيّة صرفة، ومع ذلك فقد مالوا إلى أن يستحسنوا بعض صور النّطق أو يستهجنوها، وفقا لما قرئ به القرآن ورُوِيَ به الشّعر غالبا. **وعلى أيّة حال فإنّ "كانتينو" يعدّها دراسات نفيسة.**

والمألوف عند علماء الدرس اللسانيّ الحدث أن يبدؤوا بحوثهم الصّرفيّة بدراسة الخصائص الصّوتيّة للّغة على اعتبار أنّ دراسة وحدات اللّغة الصّغرى، أي أنّ الأصوات هي المقدّمة الّتي لابدّ منها لدراسة بنية الوحدة الّتي تليها، وهي الوحدة الصّرفيّة.

ويبدو أنّ البحث الصوتي عند العرب ارتبط بمراحل الدّرس اللّغويّ الأولى، وسبقت المباحث الصّوتية بقية مستويات الدرس اللّغويّ، فظهرت بذور هذا العلم تنمو شيئا فشيئا على يد مجموعة من أعلام اللغة العربية. **فكانت مصادر البحث الصّوتيّ** في العربيّة متنوّعة من **صناعة المعجمات والنّحاة والقرّاء**، ويمكن وصف هذه المصادر وفق النحو الآتي:

1–جهود أبي الأسود الدؤلي:

وضع **"أبو الأسود الدؤلي"** في القرن **الأول الهجري** رموزا مكتوبة للأصوات(الحروف)، ونقاط للأصوات الصامتة(حركات)، فكانت **النقطة فوق الحرف** دلالة على **الفتحة، والنقطة بين يدي الحرف** دلالة على الضمة، **والنقطة تحت الحرف** دلالة على **الكسرة**، وأمّا **النقطتين** فكانتا علامة **الغنة**، وهذه بدايات التّفريق بين الأصوات **الصّامتة والصّائتة** في **الخط العربيّ**.

2–جهود نصر بن عاصم اللّيثيّ:

استطاع **"نصر بن عاصم الليثي"** أن يضيف –إلى ما قدّمه أبو الأسود الدؤلي– نقط الحروف للتمييز بين المتشابه منها، فميّز بين: "الباء" و"التاء" و" الثّاء"، وبين "الظاء" و"الطاء"، وبين "العين" و"الغين"، وبين "الخاء" و"الحاء"، وذلك بزيادة النقط التي نستخدمه اليوم في كتاباتنا. كما استطاع أن **يضيف ترتيبا جديدا** بإعادة ترتيب حروف العربية على **أساس الشّكل الكّتابيّ**، حيث جمع بين الحروف المتشابهة شكلاً في البداية، وختم بالحروف التي لا تتشابه في الشكل، **أ/ب ت ث/ ج ح خ/ د ذ/ ر ز/ س ش/ ص ض/ ط ظ/ ع غ/ ف ق/ ك/ ل/ م/ ن/ هـ/ و/ ي/(وهو الترتيب الألفبائي)**.

3– جهود الخليل بن أحمد الفراهيدي:

كان **"الخليل بن أحمد الفراهيديّ"** من أكثر اللّغويين عناية بالبحث الصّوتيّ، ويعدّ كتاب **"العين"** من أهمّ المعجمات العربيّة الّتي انتهجت **"التّرتيب الصّوتي"**؛ حيث وضع "الخليل" **مقدّمة ضافية** له، أوضح فيها منهجه في ترتيب الألفاظ في هذا المعجم وفق الترتيب الصوتي(**المخرجي**).

1–الترتيب الصّوتيّ:

أقيم هذا المعجم على **"أساس صوتي"** هو اعتبار مخارج الحروف في ترتيب الكتب مبتدئ بحروف **الحلق** ومنتهيا إلى الحروف الشّفويّة، وعناية **"الخليل"** ظاهرة للباحثين حتّى ذهب بعضهم إلى أن يقول: **"أمّا علماء اللّغة العرب فقد بدأت محاولاتهم بعمل الخليل بن أحمد فلم أجد نحويّا من النّحاة الأوّلين أحسّ بضرورة الدّراسة الصّوتيّة لفهم أسرار العربيّة غير الخليل بن أحمد"**.

وقد رتّب الخليل أصوات اللغة العربية على النحو الآتي: : العين (ع) والحاء (ح) والهاء (هـ) والخاء (خ) والغين (غ) القاف (ق) والكاف (ك) الجيم(ج) والشين(ش) والضاد(ض) الصّاد(ص) والسّين(س) والزّاي(ز) الطاء(ط) والتاء(ت) والدّال(د) الظاء(ظ) والذّال(ذ) والثّاء(ث) الراء(ر) واللّام(ل) والنون(ن) الفاء(ف) والباء(ب) والميم الياء(ي) والواو(و) والألف(ا) والهمزة(ء).

2– مخارج الأصوات عند الخليل بن أحمد الفراهيدي:

قسّم الخليل **أصوات اللّغة العربية** بحسب مخارجها إلى عدّة مجموعات، حيث بدأ الترتيب الصّوتيّ بأقصاها مخرجًا من الحلق حتّى الشّفتين، وكان ذلك وفق النحو الآتي:

– **المجموعة الأولى**: تسمى حروف هذه المجموعة بالحروف **الحلقيّة**، لأنّ مبدأها من **الحلق**، وتضم الحروف الآتية: العين (ع) والحاء (ح) والهاء (هـ) والخاء (خ) والغين (غ).

– **المجموعة الثّانيّة**: تسمى حروف هذه المجموعة اللّهويّة، لأنّ مبدأها من **اللّهاة**، وتضم: القاف (ق) والكاف (ك).

– **المجموعة الثّالثة**: تسمى حروف هذه المجموعة بالحروف **الشّجريّة**، لأنّ مبدأها من شجر الفم أي مفرج الفم، وتضم الجيم(ج) والشين(ش) والضاد(ض).

– **المجموعة الرّابعة**: تسمى حروف هذه المجموعة بالحروف **الأسليّة**، لأنّ مبدأها من **أسلة اللّسان**، وهي مستدق طرف اللّسان، وتضم الصّاد(ص) والسّين(س) والزّاي(ز).

– **المجموعة الخامسة**: تسمى حروف هذه المجموعة بالحروف **النطعيّة**، لأنّ مبدأها من نطع الغار الأعلى، وتضم الطاء(ط) والتاء(ت) والدّال(د).

– **المجموعة السادسة**: تسمى حروف هذه المجموعة بالحروف **اللثويّة**، لأنّ مبدأها من اللّثة، وتضم

الظاء(ظ) والذّال(ذ) والثّاء(ث).

– **المجموعة السّابعة**: تسمى حروف هذه المجموعة بالحروف **الذلقية**، لأنّ مبدأها من ذلق اللّسان، وهو تحديد طرفي ذلق اللّسان، وتضم الراء(ر) واللّام(ل) والنون(ن).

– **المجموعة الثّامنة**: تسمى حروف هذه المجموعة بالحروف **الشفويّة**، لأنّ مبدأها من الشّفة، وتضم الفاء(ف) والباء(ب) والميم.

– **المجموعة التّاسعة**: تسمى حروف هذه المجموعة بالحروف **الهوائيّة** في حيز واحد، لأنّها لا يتعلق بها الشّيء"، وتضم الياء(ي) والواو(و) والألف(ا) والهمزة(ء).

3– وللخليل ملاحظات جيدة عن **توالي الأصوات أو ائتلافها**، ما هو مسموح به وما هو متمنع، ما هو مستحسن، وما هو مستهجن، فيقول مثلا: "**العين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما...لا تجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية...**".

4- كما أنّ له ملاحظات أخرى في **الربط بين الصوت والمعاني**، أو ما يعرف عنده **بحكاية الصوت**، فهو يربط بين تثقيل لام الفعل أو تشديد في: صر الجندب والمد، كما يربط بين التّضاعف في الفعل في صرصر الأخطب والتّرجيع، يقول: " **فالثّقل مدّ والتّضاعف ترجيع ... فكأنّهم توهمّوا في صوت الجندب مدا وتوهّموا في صوت الأخطب ترجيعًا**".

5- هذا وقد وقف "الخليل" في **وصف الأصوات** عند بيان **مخارجها** ولم يتعرض لغير ذلك من اعتبارات تتعلّق بطبيعة **مجرى الهواء** أو بغير ذلك من اعتبارات استوفاه تلميذه سيبويه في "الكتاب"، لأنه كان معنيا فحسب بعدّ **حروف العربية وترتيبها بما يساعده في وضع معجم يحصر الكلام العربيّ**.